سورة الفاتحة (١)

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمـــه :

اعلم أرشدك الله لطاعته ، وأحاطك بحياطته ، وتولاك في الدنيا والآخرة، أن مقصود الصلاة وروحها ولبها هو إقبال القلب على الله تعـــالى فيها ، فإذا صليت بلا قلب فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، ويدل على هذا قوله تعـــالى : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون)(٢) ففسر السهو بالسهو عن وقتها – أي إضاعته – والسهو عن ما يجب فيها ، والسهو عن حضور القلب ، ويدل على ذلك الحديث الذي في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق ، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلا)(٣) فوصفه بإضاعة الوقت بقوله : « يرقب

---

(١) روى أن الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود كتب إليه – وهو إذ ذاك في العيينة – يسأله أن يكتب إليه تفسير سورة الفاتحة ، فكتبها له .

(٢) سورة الماعون : ٤ ، ٥ .

(٣) صحيح مسلم (كتاب المساجد) ، وقد رواه أيضاً الترمذي (كتاب المواقيت) والنسائي (كتاب الموقيت) .

الشمس » وبإضاعة الأركان بذكره النقر ، وبإضاعة حضور القلب بقوله : « لا يذكر الله فيها إلا قليلا » .

إذا فهمت ذلك فافهم نوعاً واحداً من الصلاة ، وهو قراءة الفاتحة لعل الله أن يجعـــل صلاتك في الصلوات المقبولة المضاعفة المكفرة للذنوب .

ومن أحسن ما يفتح لك الباب في فهم الفاتحة حديث أبي هريرة الذي في صحيح مسلم قال سمعت(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله : حمدني عبدي ، فإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله : أثنى علي عبدي ، فإذا قال : (مالك يوم الدين) قال الله : مجدني عبدي ، فإذا قال : (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال : (اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) انتهى الحديث .

فإذا تأمل العبد هذا ، وعلم أنها نصفان : نصف لله وهو أولها إلى قوله : (إياك نعبد) ونصف للعبد دعاء يدعو به لنفسه ، وتأمل أن الذي علمه هذا هو الله تعـــالى ، وأمره أن يدعو به ويكرره في كل ركعة ، وأنه سبحانه من فضله وكرمه ضمن إجابة هذا الدعاء إذا دعاه بإخلاص وحضور قلب تبين له ما أضاع أكثر الناس .

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الصلاة) ، وقد رواه أبو داود أيضاً(كتاب الصلاة) والترمذي (كتاب التفسير) والنسائي (افتتاح) وابن ماجة(أدب) وهو أيضاً في مسند أحمد ٢—٢٤١ .

قد هيئوك لأمر لـــو فطنت له فأربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وها أنا أذكر لك بعض معاني هذه السورة العظيمة لعلك تصلي بحضور قلب ، ويعلم قلبك ما نطق به لسانك ، لأن ما نطق به اللسان ولم يعقد عليه القلب ليس بعمل صالح كما قال تعالى : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم)(١) وأبدأ بمعنى الاستعاذة ، ثم البسملة ، على طريق الاختصار والإيجاز ، فمعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ألوذ بالله وأعتصم بالله وأستجير بجنابه من شر هذا العدو ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أويصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ، لأنه أحرص مايكون على العبد إذا أراد عمل الخير من صلاة أو قراءة أو غير ذلك ، وذلك أنه لا حيلة لك في دفعة إلا بالاستعاذة بالله لقوله تعالى : (إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم)(٢) فإذا طلبت من الله أن يعيذك منه ، واعتصـــمت به كان هذا سبباً في حضور القلب فاعرف معنى هذه الكلمة ولا تقلها باللسان فقط كما عليه أكثر الناس .

وأما البسملة فمعناها أدخل في هذا الأمر من قراءة أو دعاء أو غير ذلك (بسم الله) لا بحولى ولا بقوتي ، بل أفعل هذا الأمر مستعيناً بالله ، متبركاً باسمه تبارك وتعـــالى ، هذا في كل أمر تسمى في أوله من أمر الدين أو أمر الدنيا ، فإذا أحضرت في نفسك أن دخولك في القراءة بالله مستعيناً به ، متبرئاً من الحول والقوة كان هذا أكبر الأسباب في حضور القلب ، وطرد الموانع من كل خير .

(١) سورة الفتح : ١١ .
(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة أحدهما أبلغ من الآخر ، مثل العلام والعليم ، قال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر من الآخر رحمة .

وأما الفاتحة فهي سبع آيات : ثلاث ونصف لله ، وثلاث ونصف للعبد ، فأولها (الحمد لله رب العالمين) فاعلم أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري ، فأخرج بقوله الثناء باللسان الثناء بالفعل الذي يسمى لسان الحال فذلك من نوع الشكر ، وقوله : على الجميل الاختياري أي الذي يفعله الإنسان بإرادته ، وأما الجميل الذي لا صنع له فيه مثل الجمال ونحوه فالثناء به يسمى مدحاً لا حمداً ، والفرق بين الحمد والشكر : أن الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواءً كان إحساناً إلى الحامد أو لم يكن والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور ، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر ، لأنه يكون على المحاسن والإحسان ، فإن الله يحمد على ما له من الأسماء الحسنى ؛ وما خلقه في الآخرة والأولى ، ولهذا قال : (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)(١) الآية وقال : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام ؛ فهو أخص من الحمد من من هذا الوجه ؛ لكنه يكون بالقلب واليد واللسان ، ولهذا قال تعالى : (اعملوا آل داود شكراً)(٣) والحمد إنما يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه .

---

(١) سورة الإسراء : ١١١ .
(٢) سورة الأنعام : ١
(٣) سورة سبأ : ١٣ .

والألف واللام في قوله : (الحمد) للاستغراق أي جميع أنواع الحمد لله لا لغيره ، فأما الذي لا صنع للخلق فيه مثل خلق الإنسان ، وخلق السمع والبصر والسماء والأرض والأرزاق وغير ذلك فواضح ؛ وأما ما يحمد عليه المخلوق مثل ما يثنى به على الصالحين والأنبياء والمرسلين ، وعلى من فعل معروفاً خصوصاً إن أسداه إليك ، فهذا كله لله أيضاً بمعنى أنه خلق ذلك الفاعل ، وأعطاه ما فعل به ذلك ، وحببه إليه وقواه عليه ، وغير ذلك من أفضال الله الذي لو يختل بعضها لم يحمد ذلك المحمود فصار الحمد لله كله بهذا الاعتبـــار .

وأما قوله : (لله رب العالمين) فالله علم على ربنا تبارك وتعالى ، ومعناه : الإله أي المعبود لقوله : (وهو الله في السموات وفي الأرض)(١) أي المعبود في السموات والمعبود في الأرض (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً)(٢) الآيتين ، وأما الرب فمعنـــاه المالك المتصرف وأما (العالمين) فهو اسم لكل ما سوى الله تبارك وتعـــالى فكل ما سواه من ملك ونبي وإنسي وجني وغير ذلك مربوب مقهور يتصرف فيه ؛ فقير محتاج كلم صامدون إلى واحد لا شريك له في ذلك ، وهو الغني الصمد ، وذكر بعد ذلك (مالك يوم الدين) وفي قراءة أخرى (ملك يوم الدين) فذكر في أول هذه السورة التي هي أول المصحف الألوهية والربوبية والملك ؛ كما ذكره في آخر سورة في المصحف (قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس)(٣) .

---

(١) سورة الأنعام : ٣ .

(٢) سورة مريم : ٩٣ .

(٣) سورة الناس : ١ — ٣ .

فهذه ثلاثة أوصاف لربنا تبارك وتعـالى ذكرها مجموعة في موضع واحد في أول القرآن ؛ ثم ذكرها مجموعة في موضع واحد في آخر ما يطرق سمعك من القرآن . فينبغي لمن نصح نفسه أن يعتني بهذا الموضع ، ويبذل جهده في البحث عنه ، ويعلم أن العليم الخبير لم يجمع بينهما في أول القرآن ثم في آخره إلا لما يعلم من شدة حاجة العباد إلى معرفتها ، ومعرفة الفرق بين هذه الصفات ؛ فكل صفة لها معنى غير معنى الصفة الأخرى ، كما يقال : محمد رسول الله ، وخاتم النبيين ، وسيد ولد آدم فكل وصف له معنى غير ذلك الوصف الآخر .

إذا عرفت أن معنى الله هو الإله ؛ وعرفت أن الإله هو المعبود ، ثم دعوت الله أو ذبحت له أو نذرت له فقد عرفت أنه الله . فإن دعوت مخلوقاً طيباً أو خبيثاً ، أو ذبحت له أو نذرت له فقد زعمت أنه هو الله ، فمن عرف أنه قد جعل شمسان(١) أو تاجاً برهة من عمره هو الله ، عرف ما عرفت بنو إسرائيل لما عبدوا العجل ، فلما تبين لهم ارتاعوا ، وقالوا ما ذكر الله عنهم : (ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين)(٢) .

وأما الرب فمعناه المالك المتصرف ، فالله تعـالى مالك كل شيء وهو

---

(١) شمسان وتاج – ومثلهما يوسف – رجال كان الناس في عصر الشيخ يعتقدون فيهم الولاية ، ويرفعون لهم من العبادة والدعاء ونحوهما ما لا ينبغي أن يرفع إلا لله عز وجل .

راجع مثلا : رسالة (كشف الشبهات) للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٩ و(تاريخ ابن غنام) ص ٢٤٥ .

(٢) الأعراف : ١٤٩ .

المتصرف فيه ، وهذا حق ، ولكن أقر به عباد الأصنام الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر الله عنهم في القرآن في غير موضع كقوله تعالى : (قل من يرزقكم من السماء والأرض – إلى قوله – فقل أفلا تتقون)(١) .

فمن دعا الله في تفريج كربته وقضاء حاجته ، ثم دعا مخلوقاً في ذلك خصوصاً إن اقترن بدعائه نسبة نفسه إلى عبوديته مثل قوله في دعائه (فلان عبدك) أو قول (عبد علي) أو (عبد النبي أو الزبير) فقد أقر له بالربوبية وفي دعائه علياً أو الزبير بدعائه الله تبارك وتعالى وإقراره له بالعبودية ، ليأتي له بخير أو ليصرف عنه شراً مع تسمية نفسه عبداً له ، قد أقر له بالربوبية ، ولم يقر لله بأنه رب العالمين كلهم بل جحد بعض ربوبيته ، فرحم الله عبداً نصح نفسه ، وتفطن لهذه المهمات ، وسأل عن كلام أهل العلم ، وهم أهل الصراط المستقيم ، هل فسروا السورة بهذا أم لا ؟

وأما الملك فيأتي الكلام عليه ؛ وذلك أن قوله : (مالك يوم الدين) وفي القراءة الأخرى (ملك يوم الدين) فمعناه عند جميع المفسرين كلهم ما فسره الله به في قوله : (وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)(٢) .

---

(١) سورة يونس : ٣١ ونصها : (قل : من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون ؟) .

(٢) سورة الانفطار : ١٧ – ١٩ .

فمن عرف تفسير هذه الآية وعرف تخصيص الملك بذلك اليوم ، مع أنه سبحانه مالك كل شيء ذلك اليوم وغيره ، عرف أن التخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة التي بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها ، وبسبب الجهل بها دخل النار من دخلها . فيالها من مسألة لو رحل الرجل فيها أكثر من عشرين سنة لم يوفها حقها ، فأين هذا المعنى والإيمان بما صرح به القرآن ، مع قوله صلى الله عليه وسلم(١) : « يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً » من قول صاحب(٢) البردة :

ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ... فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فليتأمل من نصح نفسه هذه الأبيات ومعناها ، ومن فتن بها من العباد ، وممن يدعي أنه من العلماء ، واختاروا تلاوتها على تلاوة القرآن :

---

(١) روى في : سنن النسائي ، كتاب الوصايا ، وفي سنن الدارمي ، كتاب الرقاق ، وانظر أيضاً : صحيح البخاري ، كتاب الوصايا ، ومسند أحمد ١ ــ ٢٠٦ .

(٢) هو شرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجي المصري ، منسوب إلى بوصير في بني سويف بمصر ، شاعر له ديوان مطبوع ، وأشهر شعره قصيدة البردة ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد ولد عام ٦٠٨ هـ وتوفي عام ٦٩٦ هـ . أنظر مثلا : فوات الوفيات ٣ــ٣٦٢ ، ٣٦٩ .

هل يجتمع في قلب عبد التصديق بهذه الأبيات والتصديق بقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) وقوله : « يافاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً » ؟ لا والله ، لا والله ؛ لا والله إلا كما يجتمع في قلبه أن موسى صادق ، وأن فرعون صادق وأن محمداً صادق على الحق ، وأن أبا جهل صادق على الحق . لا والله ما استويا ولن يتلاقيا حتى تشيب مفارق الغربان .

فمن عرف هذه المسألة وعرف البردة ، ومن فتن بها عرف غربة الإسلام ، وعرف أن العداوة واستحلال دمائنا وأموالنا ونسائنا ، ليس عند التكفير والقتال ، بل هم الذين بدءونا بالتكفير والقتال ، بل عند قوله : (لا تدعوا مع الله أحداً)(١) وعند قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب)(٢) وقوله : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء)(٣) فهذا بعض المعاني في قوله : (مالك يوم الدين) بإجماع المفسرين كلهم ، وقد فسرها الله سبحانه في سورة (إذا السماء انفطرت) كما قدمت لك .

واعلم أرشدك الله أن الحق لا يتبين إلا بالباطل كما قيل :

وبضدها تتبين الأشياء

فتأمل ما ذكرت لك ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ،

---

(١) سورة الجن: ١٨ ونصها (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع اللهأحداً) .
(٢) سورة الإسراء : ٥٧ .
(٣) سورة الرعد : ١٤ .

وسنة بعد سنة لعلك أن تعرف ملة أبيك إبراهيم ودين نبيك فتحشر معهما ؛ ولا تصد عن الحوض يوم الدين ، كما يصدّ عنه من صدّ عن طريقهما . ولعلك أن تمر على الصراط يوم القيامة ، ولا تزل عنه كما زلّ عن صراطهما المستقيم في الدنيا من زل ، فعليك بإدامة دعاء الفاتحة مع حضور قلب وخوف وتضرع .

وأما قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالعبادة كمال المحبة وكمال الخضوع ، والخوف والذل ، وقدم المفعول وهو إياك ، وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة ؛ والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، فالأول التبرؤ من الشرك ، والثاني التبرؤ من الحول والقوة فقوله : (إياك نعبد) أي إياك نوحد ، ومعناه أنك تعاهد ربك أن لا تشرك به في عبادته أحداً ، لا ملكاً ولا نبياً ولا غيرهما ، كما قال للصحابة : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)(١) فتأمل هذه الآية واعرف ما ذكرت لك في الربوبية ، أنها التي نسبت إلى تاج ومحمد بن شمسان ؛ فإذا كان الصحابة لو يفعلونها مع الرسل كفروا بعد إسلامهم فكيف بمن فعلها في تاج وأمثاله ؟

وقوله : (وإياك نستعين) هذا فيه أمران أحدهما سؤال الإعانة من الله وهو التوكل والتبري من الحول والقوة . وأيضاً طلب الإعانة من الله كما مرّ أنها من نصف العبد .

وأما قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) فهذا هو الدعاء الصريح الذي

---

(١) سورة آل عمران : ٨٠ .

هو حظ العبد من الله ، وهو التضرع إليه والإلحاح عليه أن يرزقه هـذا المطلب العظيم ، الذي لم يعط أحد في الدنيا والآخرة أفضل منه ، كما منّ الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح بقوله : (ويهديك صراطاً مستقيما)(١) والهداية ها هنا التوفيق والإرشاد ، وليتأمل العبد ضرورته إلى هذه المسألة ، فإن الهداية إلى ذلك تتضمن العلم والعمل الصالح على وجه الاستقامة والكمال والثبات على ذلك إلى أن يلقى الله .

والصراط الطريق الواضح والمستقيم الذي لا عوج فيه ، والمراد بذلك الدين الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو (صراط الذين أنعمت عليهم) وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأنت دائماً في كل ركعة تسأل الله أن يهديك إلى طريقهم ؛ وعليك من الفرائض أن تصدق الله أنه هو المستقيم ، وكلما خالفه من طريق أو علم أو عبادة ، فليس بمستقيم ، بل معوج . وهذه أول الواجبات من هذه الآية ، وهو اعتقاد ذلك بالقلب ؛ وليحذر المؤمن من خدع الشيطان ، وهو اعتقاد ذلك مجملا وتركه مفصـلا ، فإن أكفر الناس من المرتدين يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق وإنما خالفه باطل ؛ فإذا جاء بما لا تهوى أنفسهم فكما قال تعالى : (فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون)(٢) .

وأما قوله : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فالمغضوب عليهم هم

---

(١) سورة الفتح : ٢ .

(٢) سورة المائدة : ٧٠ ونصها : (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون) .

العلماء الذين لم يعملوا بعلمهم ، والضالون العاملون بلا علم ، فالأول صفة اليهود ،والثاني صفة النصارى . وكثير من الناس إذا رأى في التفسير أن اليهود مغضوب عليهم وأن النصارى ضالون ، ظن الجاهل أن ذلك مخصوص بهم ، وهو يقر أن ربه فارض عليه أن يدعو بهذا الدعاء ، ويتعوذمن طريق أهل هذه الصفات ، فياسبحان الله كيف يعلمه الله ويختار له ، ويفرض عليه أن يدعو به دائماً مع ظنه أنه لا حذر عليه منه ، ولا يتصور أنه يفعله ، هذا من ظن السوء بالله . والله أعلم ، هذا آخر الفاتحة .

أما آمين فليست من الفاتحة ، ولكنها تأمين على الدعاء ، معناها اللهم استجب ، فالواجب تعليم الجاهل لئلا يظن أنها من كلام الله ؛ والله أعلم .

وهذه مسائل مستنبطة من سورة الفاتحة ؛ استنبطها شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله تعـــالى .

الأولى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فيها التوحيد ، الثانية : (اهدنا الصراط المستقيم) فيها المتابعة ، الثالثة : أركان الدين الحب والرجاء والخوف ، فالحب في الأولى والرجاء في الثانية والخوف في الثالثة .

الرابعة هلاك الأكثر في الجهل بالآية الأولى أعني اســـتغراق الحمد واستغراق ربوبية العالمين ، الخامسة أول المنعم عليهم وأول المغضوب عليهم والضالين ، السادسة ظهور الكرم والحمد في ذكر المنعم عليهم ، السابعة ظهور القـــدرة والمجد في ذكر المغضوب عليهم والضالين ، الثامنة : دعاء الفـــاتحة مع قوله لا يستجاب الدعاء من قلب غافل . التاسعة : قوله : (صراط الذين أنعمت عليهم) فيه حجة الإجماع .

العاشرة ما في الجملة من هلاك الإنسان إذا وكل إلى نفسه ؛ الحادية عشرة : ما فيها من النص على التوكل ؛ الثـــانية عشرة : ما فيها من التنبيه على بطلان الشرك ، الثالثة عشرة التنبيه على بطلان البدع ، الرابعة عشرة آيات الفاتحة كل آية منهـــا لو يعلمها الإنســـان صار فقيها ، وكل آية أفرد معناها بالتصانيف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

obeikandl.com